ماهر شرف الدين

المثقَّف القديم



المثقف القديم

٢

ماهر شرف الدين

المثقَّف القديم

ثقافة

الطبعة الأولى، 2021

منشورات ماهر شرف الدين

ISBN: 978-0-9995375-2-7

هذا الكتاب

يضمُّ هذا الكتاب مجموعةَ مقالاتٍ وافتتاحياتٍ وبياناتٍ، نُشِرَ قسمٌ منها في مطلع «الربيع العربي»، وقد وجدتُ اليومَ فائدةً في أن أُوفِّرها للقارئ في صيغة كتاب، كنوعٍ من الشهادة المدوَّنة عن الحالة التي كان عليها جزءٌ لا يُستهان به من المثقَّفين العرب في تلك المرحلة الاستثنائية من عمر بلادنا، والتي سبق لي أن وصفتُها بأنها «زمن إعادة تعريف المثقَّف».

تتناول الموادّ المختارة، ومن زوايا مختلفة، ما واظبتُ على تسميته بـ«المثقَّف العربي القديم» الذي عاش حياته بلاطيَّاً مدَّاحاً للدكتاتور، وحين فاجأته الثورات العربية أصابه ارتباكٌ دَفَعَه إلى اتِّخاذ وضعياتٍ إشكاليةٍ استحقَّتْ مواكبتها ونقدها، وبما يتجاوز النقد إلى الهجاء في بعض الأحيان.

من المثقَّف الذي لا يخجل من الاعتراف بأنه كتبَ مديحاً للدكتاتور لقاءَ أُعطياته، إلى المثقَّف الذي كان يُزايد على الآخرين في حبِّ الدكتاتور ثمَّ صار يُزايد عليهم في حبِّ الثورة، إلى المثقَّف

الذي يُؤيِّد الثورات في البلاد كلِّها باستثناء الثورة في بلده، إلى المثقَّف الذي ينتظر رجحان الكفَّة ليعلن موقفه المنحاز إلى المنتصر، إلى المثقَّف الذي ساند الدكتاتور في حربه على الشعب تحت يافطات أيديولوجية، إلى المثقَّف الذي تجنَّد علناً في ماكنة الدكتاتور الإعلامية للتضليل على دماء الأبرياء... نماذج كثيرة لمثقَّفين لم يكونوا أوفياء للدور الذي يُفترَض بهم أن يلعبوه كقادةِ وعي، يتصدَّى هذا الكتاب المجموع لنقدها، وفق رؤيةٍ سيرى إليها البعض بأنها واقعيةٌ ومُنصفةٌ وسيرى إليها البعض الآخر بأنها مفرطةٌ في عدم واقعيتها.

ولذا لا غرابة في أن يكون مُختَتَم الكتاب مقالة دفاعية عن جزء من الدور الذي لعبتُه شخصياً، وأنا أحسب بأنه دورٌ من صميم عمل المثقَّف، بينما حسبه آخرون إساءةً لصورة هذا المثقَّف.

المثقَّف القديم

فاجأنا الكاتب اللبناني جان دايه بمقالةٍ غريبةٍ في جريدة «النهار» (10 نيسان 2011) يتحدَّث فيها، بكلِّ راحة ضمير، عن مشاركته في مؤتمر انعقد عام 1995 حول «إبداع» معمَّر القذافي! معدِّداً ما حصل من إهانات (سمَّاها «مفاجآت»)، واصفاً للقرَّاء لقاءَه بالقذافي رفقةَ «مئة كاتب يجلسون القرفصاء» في خيمة «العقيد»... الذي ازدراهم جميعاً فتغيَّب عن «جلسات المؤتمر بما في ذلك جلستا الافتتاح والختام»!

الكاتب اللبناني الذي أخذ الأمر على أنه مسألة طبيعية، وموضع تندُّر، لم يقرأ جيِّداً - على ما يبدو - التحوَّلات الكبيرة التي تحدث في العالم العربي. لم ينتبه إلى أنَّ منظومةً كاملةً من الأفكار والنماذج بدأت بالانهيار، وعلى رأسها تعامُل المثقَّف مع نفسه ودوره بهذه الخفَّة.

ما قرأتُه في مقالة جان دايه ليس المثال الوحيد على ما أريد قوله. فقبله بأربعة أيام كتبت الشاعرة الأردنية زُليخة أبو ريشة

مقالاً أكثر غرابةً بعنوان «نحبُّ الملك ونكره النظام» في جريدة «القدس العربي» (6 نيسان 2011)، تفتتحه كالآتي: «نحن نحبُّ الملك، فهو رأسُ الوطن ورمزُه أيضاً. هو والعلم الأردنيُّ رمزان مجرَّدان عاليان مصونانِ لا يُمسَّان ولا يُناقشان»!

وإذا كنتُ لا أفهم كيف يمكن لمثقَّف أن يستخدم جملة «لا يُناقَش»، كما يستخدمها أيُّ متطرِّف أيديولوجي، فكيف لي أن أفهم ترويج المثقَّف العربي للأكذوبة الشائعة في كلِّ البلدان العربية عن أنَّ الرئيس والملك والسلطان هم من دُعاة الإصلاح لكنَّ الذين حولهم هم مَنْ يرفضون ذلك! فلنقرأ ما تقوله الشاعرة أبو ريشة: «النظام الذي نكرهُه ليس النظام الملكيَّ الذي نريده (...) النظام الذي نكرهه هو ذاك الذي كلَّما قال الملك: الإصلاح، كان يضع في أذنَيه سمَّاعات تُسمعه هدير الجماهير المنادية بحياته»!

ولن أتابع أكثر في استلال الأمثلة الـمُعيبة من هذه المقالة المليئة بعبارات من مثل: «نحبُّ الملك رمز استقرارنا»، «نريدُ المَلَكيَّة»... بل عوضاً عن ذلك سأسردُ حادثةً شخصيةً أبلغ تعبيراً من كلِّ ما سبق قوله، وملخَّصُها أنني أثناء بحثي عن طريقة للحصول على جواز سفر (إلى اليوم أنا محروم من جواز سفري السوري)، فوجئتُ بإحدى الصديقات تعرض عليَّ الحلَّ الآتي: «اكتبْ مقالةً تمدح فيها

الرئيس فتُحلّ المشكلة»!! الصديقة، التي تنتمي إلى جيل جان دايه، عرضَت اقتراحها بكلِّ عفوية، دون أن تُفكِّر بأنَّ في مثل الطرح الغريب إهانةً كبرى لي! وأنا - على الرغم من صدمتي الكبيرة بالخفَّة التي قدَّمت بها «اقتراحَها» - لم أردّ عليها بكلام قاسٍ جداً، لأنني، لحظتها، قلتُ في نفسي: إنها من نوع المثقَّف القديم.

قِدَمُ النمط، لا الزمن، هو ما أعنيه طبعاً بكلامي على المثقَّف القديم. قِدَمُ الفهم والذهنيَّة. فكم بين أبناء جيلي من مثقَّفين قدماء بأفكارهم البالية عن معنى المثقَّف ودوره، لم يتوانوا عن مديح زعماء وساسة، مقابل وظيفة أو مبلغ من المال أو حتى التقاط صورة. وهنا يمكنني الاعتراف بأنَّ أكثر اسم آلمني وجوده بين الأسماء الكثيرة للأدباء الذين امتدحوا العقيدً القذافي مقابل أُعطيات مالية، هو اسم «ميرال طحاوي». لماذا؟ لأنها شابَّة تحديداً. فأنا لا أستطيع تخيُّل الشباب عديماً من العنفوان الأخلاقي ومن ضمير أكثر توقُّداً. لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لأديب شابّ أن يبيع نفسه وقلمه من أول المشوار!

الثورة العربية الحاصلة اليوم، لم تكشف فقط فساد ووضاعة الطبقة السياسية التي تحكمنا، بل أيضاً كشفتْ تهافت المثقَّف العربيّ والحالة الكرتونية للثقافة العربية. ولولا استثناءات قليلة، لكنَّا تماماً

أمام تجمُّع للصِّبية؛ بعضهم يدافع عن الأنظمة وبعضهم الآخر يتراشقُ التهم والمزايدات والبطولات الوهمية، وليس أمام مثقَّفين يضطلعون بدورهم التاريخيِّ في مفصلٍ تاريخيٍّ لن يتكرَّر.

لذلك، وعوض أن تكون بيانات المثقَّفين المواكبة للثورة شهادةً حيَّةً على دور المثقَّف القياديِّ، باتت شهادةً هزليَّةً على الدور الهزليِّ الذي ارتضاه المثقَّف العربي لنفسه. فعلى سبيل المثال صدر منذ أيام (28 نيسان 2011) بيانٌ يُدين مجازر النظام السوريّ، وأول موقِّعيه هو الشاعر العُماني سيف الرحبي الذي لا يذكر اسم السلطان، في مجلَّته «نزوى»، إلَّا على الشكل التأليهيّ الآتي: «جلالة السلطان قابوس بن سعيد المُعظَّم حفظه الله ورعاه»!

ومن بين الموقِّعين على البيان أيضاً الشاعرتان السعوديتان فوزية أبو خالد وعبير زكي اللتان لم نسمع رأيهما في انتهاكات نظام بلدهما بحقِّ مواطنيه!

وبالمثل، كانت حماسة المثقَّفين السوريين كبيرةً في إصدار البيانات وتوقيعها دعماً لثورتَيْ تونس ومصر، لكنْ ما إن وصلت الثورة إلى سوريا حتى لم نعد نسمع إلا الشيء القليل القليل، على الرغم من أنَّ حجم العنف الذي يرتكبه النظام السوريّ أكبر بما لا يُقاس من عنف النظامَين التونسي والمصري السابقَيْن.

الشاعر السوري نزيه أبو عفش يكتب على صفحته في «فيسبوك» بأنه يعرف سلفاً أنَّ اسمه سيُوضَع على قائمة العار! مع ذلك يستمرّ في موقفه المُخزي من الأحداث الجارية، مختزلاً ما يجري في سوريا بمجرَّد خلاف على الملكيَّة و«على مَن يحق له أن يحمل المفاتيح»! كلامٌ كهذا ليس تضليلياً فحسب، بل ويفتقد الدرجةَ الدنيا من النزاهة. وإذا ما أردتُ الذهاب أكثر من ذلك أقول إنه ينبع – مع كلِّ أسفٍ – من حسٍّ طائفيٍّ صريح. وهذه قضية خطرة كشفتها الأحداث الأخيرة، حيث وقع العديد من المثقفين السوريين الذين ينتمون إلى أقلِّيات دينية في شرك الترويج لدعاية السلطة عن أن النظام الحالي هو السدّ المانع للاقتتال الطائفي، أو بالأصحّ لثأر «الأكثرية» من الأقلِّيات كما يفكر ويُروِّج هؤلاء... عوض أن يكونوا السبَّاقين إلى دحض هذه الخرافة، أو إعادتها إلى حجمها الطبيعي. وإلَّا فما الذي يجعل أبو عفش الذي حيَّا الثورة المصرية يقف ضدَّ الثورة حين تصل إلى بلده سوريا؟

أمراضٌ لا حصر لها أظهرتها الثورات العربية لدى المثقَّفين العرب. لم أتحدَّث بعدُ عن ظاهرة «مثقَّفي الأحاجي» الذين يجب عليك – لفهم ما يريدون قوله – أن تكون خبيراً في علوم التنجيم وقراءة الكفِّ والطالع. لم أتحدَّث بعدُ عن أولئك الذين يقفون في

منطقة رمادية بانتظار جلاء النتيجة. كما لم أتحدَّث عن أمراض مزمنة أُخرى من أمراض المثقف القديم الذي آنَ عليه أن يرحل مع النظام الذي عاش معه وصفَّق له وصار على مثاله.

حين ارتكب جابر عصفور صَغَارته الكبرى بتولِّي الوزارة على دماء المصريين، كتبتْ جريدة «الحياة»، بتاريخ 1 شباط 2011، محاوِلةً الالتفاف على القارئ بأن جابر عصفور «استطاع أن يُضفي معنى مختلفاً للعلاقة المتأزمة دوماً بين المثقَّف والسلطة»!

اليوم، هذا «المعنى المختلف» هو ما بدأ ينهار... وإلى غير رجعة.

مجلَّة «الغاوون»، عدد 1 أيّار 2011

انحطاط المثقَّف العربي(*)

مَنْ يقرأ ما قاله إبراهيم الكوني في تصريحه لموقع «الجزيرة نت» (26 شباط 2011) عن أنه «أول معارض في ليبيا» و«العدو رقم واحد للنظام الليبي» و«الوحيد الذي يحمل روحه على كفِّه ويقاتل النظام منذ جاء في 1969...»!! نقول إنَّ من يقرأ هذه التصريحات الأخيرة يظنُّ بأنَّ الكوني كان من أشدّ المعارضين لدكتاتور ليبيا، وليس رئيس لجنة تحكيم «جائزة القذافي»، أو الكاتب الذي يعيش على حساب الحكومة القذافية في سويسرا، بل وليس صاحب محاضرة «أغنية الحقيقة» التي قدَّمها تحت عنوان «القذافي كاتباً ومبدعاً» دارساً فيها «المكان الأسطوريّ» في قصص «القائد القذافي»!

ومَنْ يسمع نبوءات واسيني الأعرج للثورة العربية وتشجيعه لها، لن يُصدِّق بأنه صاحب الدراسة التي تحمل عنوان «المدينة والمثال في مجموعة معمر القذافي القصصية» التي تحدَّث فيها عن «تداخل فنّ القصّ بفنّ الديالكتيك»!

ومَنْ يقرأ ما يكتبه طلال سلمان في صحيفته «السفير» هذه

الأيام عن إجرام القذافي واحتقاره للشعب الليبي حتى أنه قال لطلال سلمان يوماً: «كلّ الليبيين حمير» (السفير، 2 آذار 2011)، لا يمكن أن يخطر في باله أنَّ سلمان هذا أسَّس جريدة «السفير» من جيب القذافي وكان أحد أبرز أبواقه الصحافية طوال عقودٍ!

ومَنْ يسمع ما تُصرِّح به ميرال الطحاوي في كلِّ الصحف والمواقع عن حماستها للثورة وإزالة الديكتاتوريات، لن يدور في خلده بأنَّ الطحاوي كتبتْ دراسةً كاملةً عن عبقرية القذافي الأدبية بعنوان «المكان في إبداعات معمَّر القذافي»!

ومَنْ يقرأ اليوم البيانات الثورية التي يُوقِّعها المترجم السوري ثائر ديب، لا يقول بأن هذا الشخص هو نفسه مَن كان يُصفِّق أثناء حفل تسليم «جائزة القذافي» لجابر عصفور!

ومَن يسمع أحمد إبراهيم الفقيه وهو يتحدَّث عن نضاله من أجل الحرِّية وانحيازه إلى الثورة، لا يمكن أن يخطر في باله أنَّ الفقيه هو من قدَّم للمجموعة القصصية اليتيمة للقذافي، بل إنَّه السمسار الأدبيُّ الرسميُّ للقذافي حيث أُوكِلتْ إليه مهمَّة شراء ذمم المثقَّفين والأدباء لكتابة الدراسات والبحوث عن أدب القذافي وفكره (ولذلك كثيراً ما نجد بأن مَنْ كتبَ عن القذافي كتبَ عن الفقيه أيضاً).

ومَنْ يسمع جابر عصفور وهو يطالب «بمحاكمة مثقَّفي السلطة ومن كان بوقاً لها، لأنهم خانوا مهمَّتهم كمثقَّفين يساهمون في تقدُّم المجتمع» (الجزيرة نت، 28 شباط 2011)، لا يمكن أن يتصوَّر بأن عصفور هذا وصل إلى الوزارة على دماء شباب الثورة المصرية، ناهيك عن أنَّه استماتَ للحصول على «جائزة القذافي» التي رفضها قبله كاتب إسباني شجاع لتنافيها مع أبسط مبادئ الأخلاق المهنية لأيِّ مثقفٍ يحترم نفسه.

***

بكلِّ هذه السهولة والخفَّة يغدو مدَّاحو القذافي وكَتَبَتُه أبطالاً ثوريين يصولون ويجولون على الصحف ومواقع الإنترنت مُبشِّرين بزوال الاستبداد وبزوغ عصر الحرِّية، مُستخفِّين بذاكرتنا وعقولنا!

عشرات، بل مئات المثقَّفين العرب وقفوا على باب القذافي يمتدحون عبقريته «الأدبية» مقابل مبالغ مالية قال عبده وازن بأنها «كانت ضئيلة جداً على خلاف توقُّعهم، وبعضهم ندم كثيراً، بحسب ما صارحني أحدهم» (الحياة، 28 شباط 2011).

محمد سلماوي، حسن حميد، عبد القادر الحصني، فهمية شرف الدين، عبدالله أبو هيف، شاكر نوري، خير الدين حسيب، فؤاد قنديل، جورج جبور، علي عقلة عرسان، عادل زعبوب،

حسين جمعة، عبد الرحمن مجيد الربيعي، سمر روحي الفيصل، طلحة جبريل، سهيل زكار، صلاح فضل، أنور رجا... وعشرات المؤسَّسات الثقافية: «جمعية السوسيولوجيين العرب» (لبنان)، «دار المسيرة» (لبنان)، صحيفة «السفير» (لبنان)، صحيفة «الدستور» (مصر)، «معهد الإنماء العربي» (لبنان)...

كوليت خوري بعدما قرَّعتْ أصدقاءَها المثقَّفين لعدم تعريفها من قبل بمجموعة القذافي القصصية، قالت إنَّ القذافي اخترع «صنفاً أدبياً جديداً»!

عز الدين ميهوبي الذي عنون دراسته بـ«البعد الإنساني في إبداعات معمر القذافي» قال إنَّ القذافي مهمومٌ بـ«البحث عن بيئة أخلاقية» وإنَّه «وضع منظومة جديدة من القيم»!

سمير سرحان رأى في قصص القذافي «نظرة عميقة في جوهر الحياة نفسها»، أما وجيه فانوس فلم يقبلْ بها أقلّ من «تجربة جديدة في دنيا الأدب العربي والأدب العالمي عموماً»!

***

بعدما انكشف القذافي للعالم كسفَّاح مجنون، قال جابر عصفور بأنه يتبرَّأ من جائزته. وحين سألوه إذا ما كان سيردُّ قيمة الجائزة المالية؟ أجاب: «لا، لأنَّ الشعب الليبي هو من أعطاني المال، وردّ

المبلغ سيكون بمثابة إهانة لليبيين»!!

عن حقٍّ، إذا كان للقذافي من حسنةٍ واحدةٍ، فستكون أنه قد كشف لنا انحطاط المثقَّف العربي واحتقاره لنفسه.

مجلة «الغاوون»، عدد 1 **نيسان** 2011

(*) العنوان الأصلي للمقال «مرتزقة القذَّافي يستخفُّون بعقولنا».

خيانة المثقَّف(*)

في طفولتنا، حين كنَّا نلعب الكرة ويصادف أن يكون عددُنا فردياً لا يقبل القسمة على فريقَيْن، نُسمِّي الشخص الذي يبقى خارج القسمة «عصفورْ طيّارْ». وهذا الشخص كان في حقيقة الأمر أخطرَ لاعبٍ على الإطلاق، لأنه ببساطةٍ ينتمي إلى كلا الفريقَيْن، وله الحرّية في قذف الكرة أينما شاء، ولا يستطيع أحدٌ معرفة الوجهة التي سيسلكها، وأيّ الفريقَيْن سيدعم؟ وأيّ الفريقَيْن سيخون؟

حَضَرَتني هذه الذكرى وأنا أحاول «اللعب» على كلمة «عصفور» في اسم الدكتور جابر عصفور لصنع عنوان يُعبِّر عن الجريمة التي ارتكبها عبر مجيئه وزيراً (للثقافة!) على دماء الناس.

وعلى العكس مما قاله الكثير من المثقَّفين المصدومين من أنَّ عصفور هذا قد «خان تاريخه»، أقول بأنه كان وفياً جداً لهذا التاريخ. فهو وفيٌّ للمناصب التي قاتلَ في سبيل الوصول إليها، ووفيٌّ للحظيرة التي أنشأها لتدجين المثقَّفين، ووفيٌّ للصفقات التي حاكَها ولم يخجل من الدفاع عنها، ووفيٌّ للجوائز المُخزية التي قَبِلَها بعدما

اعتذر عنها آخرون، ووفيٌّ للرئيس الذي عملَ في بلاطه كأيٍّ خادمٍ مطيعٍ. في حديثه الأخير لـ«الأهرام المسائي» عبَّرَ جابر عصفور عن سعادته الكبيرة لثقة الرئيس حسني مبارك به وتكليفه بوزارة الثقافة «التي تُعبِّر عن هوية الشعب المصري وثقافته وتاريخه»، مؤكِّداً أن الرئيس مبارك لطالما «كان عوناً وسنداً للمثقَّفين المصريين كافَّة»!

أمَّأ الخيانة الفعلية التي ارتكبها عصفور فهي تلك الضربة التي سدَّدها إلى معنى المثقَّف ودوره في زمن شديد الحساسية كزمن الثورات العربية. هي أنه ما يزال، حتى الآن، يتكلَّم باسم المثقَّفين وباسم التنوير!

هذا هو تاريخ جابر عصفور، وهذي هيَ خيانته الحقيقية أيها الزملاء.

مجلة «الغاوون»، عدد 1 **شباط** 2011

(*) العنوان الأصلي للمقال «عصفور طيَّار».

افتتاحية:
المثقَّف العربي وتبديل الممدوحين

لم يكن المثقَّف العربي عارياً ومكشوفاً كما هو حاله اليوم. ولم تزدْ مدائحه للثورات العربية هذا العُري إلا عُرياً، حيث أثبتتْ تلك المدائح السطحية ذيليَّته واتِّباعه لمجرى الحدث، عوض أن يكون أحدَ صُنَّاعه.

سيُقال إنَّ في هذا الكلام ظلماً، وكثيراً من التحامل على مثقَّفٍ لم تترك له الدكتاتورية أيَّ هامش لكي يمارس دوره عبره.

طيِّبْ. فلنشرعْ في معاينة دوره في البلدان التي سقطت فيها الدكتاتوريات (أو شارفتْ). ماذا سنجد؟ المدائح لهذا الشعب العظيم، الاعتزاز بالانتماء إلى هذا الشعب العظيم، الانحناء إجلالاً لهذا الشعب العظيم... إلى آخر هذه المدائح التي كان يكيلها، بالأمس، هذا المثقَّف نفسه للدكتاتور نفسه!

فإذاً، المشكلة تكمن في فهم المثقَّف العربي لدوره كبوقٍ، كفردٍ في الحاشية، كماسح أحذية... وليس مهماً إذا ما كانت تلك

الأحذية الممسوحة من ماركة فاخرة يُحبِّذها الدكتاتور، أو من ماركة «أم إصبع» التي ينتعلها شباب الثورات الفقراء.

لقد عاثَ المثقَّف العربي القديم فساداً في معنى المثقَّف ودوره، حتَّى بات المرء يخلط بين المثقَّف والموظَّف، بين صاحب الكلمة وصاحب الختم، بين الإصبع التي تُشير وتتهم والإصبع التي يختبئ خلفها الخائفون والجبناء.

واليوم، بعد عقودٍ من الغرام بالدكتاتور، فجأةً اكتشف هذا المثقَّف حبَّ الثورة، ومن أول نظرة! وراح يُزايد في هذا الحبّ حتَّى على الأصوات التي امتلكتْ شجاعة مقارعة الدكتاتور قبل الثورة بسنواتٍ. بل وبات هذا المثقَّف يرفض أيَّ انتقاد عقلاني هدفه التنبيه إلى خطورة الانحراف الذي يُنفِّذه الإسلاميون بسيرورة الثورة!

يتعامل أمثال هذا المثقَّف مع كلِّ حدثٍ على أنه سلطة، على أنه دكتاتور آخر لا بدَّ من مسايرته ونفاقه. يتعامل بمنطق تقديم الولاء للحاكم الجديد؛ أيّ حاكم جديد.

لذلك لا عجب بأن الذين كانوا مسؤولي منابر ومؤسَّسات في عهد الدكتاتور ظلّوا مسؤولي منابر ومؤسَّسات في عهد الثورة بعدما غيَّروا جلودهم.

المثقَّف القديم

اليوم، يبدو المثقَّفون العرب إزاء الثورة تماماً كما كانوا بالأمس إزاء الدكتاتورية: حلقات دبكة ورقص ونفاق... ومدائح لملايين الأفراد بعدما كانت لفردٍ واحدٍ.

لكنْ ثمَّة أملٌ بجيل المثقَّفين الشباب الذين لم يتلوَّث قسمٌ كبيرٌ منهم بالفهم القديم لدور المثقَّف. ثمَّة أملٌ في أن يكونوا صوتهم الصافي والشجاع، وفي أن يكونوا دورَهم المشرِّف والنقدي والطليعي.

افتتاحيَّة مجلَّة «الغاوون»، عدد 10 **كانون الأول** 2011

بيان:
عن المثقف الصغير

في جريدة «القدس العربي» ينشر الشاعر اليمني عبد العزيز المقالح قصيدةً مهداةً إلى شباب الثورة المصرية... دون أن يكون في حسبانه، على الأرجح، بأنَّه ثمَّة من سيسأله: وماذا عن شباب الثورة اليمنية وأنت تعمل مستشاراً للرئيس اليمني علي عبد الله صالح؟!

أمَّا الشاعر المغربيّ حسن نجمي فقد وقَّعَ بياناً عن تأييد الثورة في مصر في حين أنَّه يعمل مسؤولاً ثقافياً تحت ظلال الملك!

معظم المثقَّفين العرب، اليومَ، يُدينون ويهاجمون فقط الزعيم الذي يسقط:

المثقَّف الأردنيّ يتحدَّث عن فساد حسني مبارك ولا يفتح فمه عن الملك عبدالله بكلمةٍ.

المثقَّف السوري يتحدَّث عن دكتاتورية زين العابدين بن علي ولا يجرؤ على انتقاد بسيط لدكتاتورية بشار الأسد.

والمثقَّف السعودي يتحدَّث عن تبذير القذافي للأموال ولا يجرؤ على انتقاد فحش حكَّامه.

واليوم يقف المثقَّف العربي صامتاً أمام ثورة البحرين، مضيفاً إلى سجلِّه الأسود مآثرَ الطائفية والمذهبية.

حين تسلَّم جابر عصفور «جائزة القذافي»، كان عشرات «المثقَّفين» حاضرين يصفِّقون ويهلِّلون؛ من كبيرهم الروائيّ المصريّ جمال الغيطاني الذي امتدح القذافي وجائزته، إلى صغيرهم المترجم السوريّ ثائر ديب الذي لم يبقَ لديه من هموم شخصية سوى تشويه صورة الكاتب السوري المعارض ياسين الحاج صالح.

المثقَّف العربي الحالي هو ابن هذه الأنظمة الفاسدة، وعليه أن يرحل معها.

وأخيراً، هذا البيان الصغير عن المثقَّف العربي الصغير ليس للتوقيع، كعادة البيانات، لأننا لا نستبعد أن يقوم أولئك الذين قصدهم البيان بالتوقيع عليه، والإشادة به أيضاً!

بيان أصدرته مجلَّة «الغاوون» بتاريخ 22 شباط 2011

افتتاحية: مزايدات البلاطيين السابقين

وكأنَّما لا يكفي الوسط الثقافيّ العربيّ ما يعيشه في زمن الثورات الشعبية من سقوطٍ لشخصيات ثقافية «بارزة» بسبب دفاعها المستميت عن السلطان بأقنعة أيديولوجية زائفة، حتى تُضاف ظاهرةٌ مزعجةٌ أُخرى تتمثَّل بمزايدات البلاطيين السابقين.

آخر الأمثلة التي بين أيدينا، احتجاج الكاتب الليبيّ أحمد إبراهيم الفقيه - والذي كان من «كبار» أدباء البلاط لدى الطاغية القذافي وأكثرهم ارتباطاً به وتسويقاً لمواهبه الفذَّة - على منح الشاعر العراقي سعدي يوسف «جائزة نجيب محفوظ»!

ولكن لماذا هذا الاحتجاج؟

يأتينا الجواب من الفقيه: لأنَّ على الجوائز «أن تُراعي موقف الشاعر أو الكاتب من قضايا شعبه» (موقع «الجزيرة نت»، 2 تـمُّوز 2012)!!

ونحن بدورنا نسأل الفقيه: أين كان هوَ من قضايا شعبه المظلوم

طوال أكثر من 40 عاماً من حكم أجهل الدكتاتوريين وأكثرهم عتْهاً؟ أين كان من قضايا الليبيين وهو يتقلَّب في المناصب كما يتقلَّب العاشق في السرير؟

بل إنَّ الفقيه – الذي يشغل اليوم منصب المستشار الإعلامي في السفارة الليبية بالقاهرة – لم يكتفِ بالكلام بلسان حاله فقط، فها هو يتكلَّم باسم المثقَّفين الثوريين جميعاً: «بالأصالة عن نفسي وبالإنابة عن قطاع المثقَّفين والأدباء المنخرطين في سياق الثورات العربية التي نشير إليها باسم الربيع العربي، أُعبِّر عن شديد الاستنكار لتقديم جائزة نجيب محفوظ للشاعر العراقي سعدي يوسف»!!

بالطبع يستحقّ سعدي يوسف كلَّ الانتقاد على موقفه البائس من الربيع العربي، ولكنْ ليس ممن كان «خليلاً» «أديباً» لمعمَّر القذَّافي.

في السياسة: الثورة تجبُّ ما قبلها. لكن في عالم الثقافة والمثقَّفين فالثورة لا يمكن أن تجبَّ تاريخ المثقَّفين البلاطيين وفسادهم. لأن الثقافة موقف، أو على الأقلّ هي صمت مشرِّف إذا لم تكن المواجهة مستطاعة... وليس قطاراً يصل فيه معاً الجالسون في المقدِّمة والجالسون في المؤخِّرة، في الوقت نفسه، وعلى السواء.

افتتاحية مجلَّة «الغاوون»، عدد 1 أيلول 2012

ثلاث افتتاحيات
عن «اتحاد الكتَّاب العرب بدمشق»

1- «اتحاد كتَّاب العار»

البيان الذي أصدره «اتحاد الكتَّاب العرب بدمشق»، سيدخل الأرشيفَ الوطنيَّ لسوريا الجديدة باعتباره أوضعَ وثيقةٍ يمكن أن تصدر عن جماعةٍ تدَّعي بأنها تمثِّل الثقافة والمثقَّفين وتتكلَّم باسمهم.

فلم يكتفِ بيان العار المذكور بالتطبيل لما يُسمَّى «مسيرة التطوير والتحديث»، بل إنه نعتَ الثورة السلمية التي تجري في سوريا بشتَّى نعوت التخوين!

فهي «هجمة منظَّمة مكشوفة الغايات والمرامي»! وهي من «المخطَّطات التي تُدبَّر لكسر الإرادة والوحدة والحرّية»! وهي شكل من «أشكال الاستلاب والفتنة (...) يُحرِّكها وهمٌ يصرُّ على تبديد طاقة سوريا القومية في أمور خارجة على هموم الجماهير وتطلُّعاتها»! وكأنما الحرّية والكرامة ليستا من تطلُّعات هذي الجماهير وهمومها!!

لقد صارَ «اتِّحاد الكتَّاب العرب بدمشق» اتِّحاداً للعار ولكُتَّابه، وذراعاً من أذرع الدكتاتور السوري العاملة جنباً إلى جنبٍ مع بقية أذرعه الأخطبوطية، وضميراً لاستبدادٍ لا ضمير له أصلاً.

افتتاحيَّة مجلَّة «الغاوون»، عدد 1 **نيسان** 2011

2- لماذا نمنح «الاتحاد» هذا الشرف؟!

قرأنا في الصحافة خبراً مفاجئاً عن قيام «اتحاد الكتَّاب العرب بدمشق» بفصل الكاتب السوري خطيب بدلة بسبب انتخابه عضواً في المكتب التنفيذي لـ«رابطة الكتَّاب السوريين»!!

ومصدر المفاجأة في الخبر هو افتراضنا بأن مجرَّد الانتساب إلى «الرابطة» هو موقف ضدَّ جرائم النظام، وبالتالي فهذا الموقف يُرتِّب على صاحبه بعض الانسجام مع نفسه؛ أقلّه الاستقالة من هذا «الاتحاد» الذي يتواطئ مع النظام في مجازره!

هل من المعقول، أو من المقبول، حقاً أن يبقى الكاتب عضواً في اتحاد النظام فيستفيد من امتيازاته، وفي الوقت نفسه يصبح في قيادة «رابطة» ما جاءت إلا لمناهضة هذا النظام والانحياز إلى خيار الشعب؟!

إنَّ الانسجام مع الذات سيكون أوَّل الضحايا لمثل هذه الازدواجية. كما أنه من العار أن ينتظر كاتبٌ حرٌّ أن يقوم «اتحاد» كهذا بفصله وطرده عوض أن يبادر هو إلى الاستقالة منه!

ولزيادة المفارقة فإن لائحة الفصل تضمَّنت من بين الأسماء المفصولة اسم «الكاتب» المجرم رفعت الأسد!! وقد ورد أن سبب فصله هو عدم التزامه بدفع الاشتراكات البالغة 6000 ليرة سوريَّة سنوياً! (كانت مجلَّة «الغاوون» أوَّل من لفت النظر إلى مسألة استمرار عضوية رفعت الأسد قبل سنتَيْن في عددها الصادر بتاريخ 1 أيلول 2010).

بالطبع كلُّنا يعرف بأنَّ بين أعضاء «الرابطة» كتَّاباً ما يزالون أعضاء في «الاتحاد»، بسبب أوضاع معيشية قاسية لا تسمح لهم بالاستقالة كما قيل لنا. لكن مسألة العضوية الرمزية شيءٌ، ومسألة الترشُّح لقيادة «الرابطة» شيءٌ آخر.

في الماضي، كان الطرد من «اتحاد الكتَّاب العرب بدمشق» باعثاً على شيء من الفخر. أما اليوم فهو مدعاة للعار ما دام الكاتب هو الذي يرفض المبادرة إلى الاستقالة منه. وهنا لا تفوتنا الإشارة إلى أن العديد من الأدباء الأعضاء بادروا إلى الاستقالة أمثال الشعراء: محمد علاء الدين عبد المولى وعائشة أرناؤوط وإبراهيم الجبين

وياسر الأطرش. أيضاً قدَّم ثلاثةٌ من أصل تسعة من أعضاء المكتب التنفيذي في «الاتحاد» استقالاتهم، وهم: الشاعر إبراهيم الجرادي، والروائي غازي حسين العلي، والناقد قاسم المقداد.

لماذا يمنح الكاتبُ المنحازُ إلى ثورة شعبه «اتحاد» العبيد هذا... شرفَ أن يطرده؟

هذا سؤال موجَّهٌ أيضاً إلى «رابطة الكتَّاب السوريين» التي ستجتمع أمانتها العامَّة قريباً، ويجب أن يكون مُدرجاً على جدول أعمالها. فهذا «الاتحاد» بوقوفه ضدَّ خيار الشعب لا بدَّ أن يكون إسقاطه أيضاً من تلك المطالب الثورية التي ينتفض لأجلها سوريُّو القرن الحادي والعشرين.

افتتاحيَّة مجلة «الغاوون»، عدد 10 تـمُّوز 2012

3- «اتحاد النعامات العرب»

ثلاثةُ كتَّابٍ سوريين، على الأقلِّ، قام نظامُ الأسد البربريّ بتصفيتهم بعد اعتقالهم وتعذيبهم: الكاتب محمد نمر مدني (مواليد 1961)، الكاتب إبراهيم الخريط (مواليد 1943)، الكاتب محمد رشيد الرويلي (مواليد 1947). الأخير هو رئيس سابق لفرع «اتحاد

الكتَّاب العرب» في مدينة دير الزور. وإنَّنا إذ نشير إلى هذه المعلومة، فمن أجل القول إنَّ هذا «الاتحاد» بعدما صمتَ عن قتل أبناء شعبه، ها هو اليوم يصمت أيضاً عن قتل بعض أعضائه!

وحقيقةً لا نعرف ما هي الحادثة الكبرى التي يمكن أن تُحرِّك الضميرَ المتكلِّسَ لهذا «الاتحاد» وقيادته؟! لا نعرف ما هي الجريمة الاستثنائية التي ينتظرها «اتحاد النعامات» هذا ليسحب رأسه من رمل العار الذي غمسه فيه؟! ما هو الخَطْب الجَلَل الذي سيُخرج ضمائر قيادته من سباتها الأبدي بعد 50 ألف شهيد على امتداد الأرض السورية، وبعدما وصل المسدَّس إلى رؤوس بعض أعضاء «الاتحاد»؟

الداخل إلى الموقع الالكتروني الرسمي لـ«الاتحاد» لن يجد أيَّ خبرٍ عن استشهاد أيِّ عضوٍ من أعضائه، بل على العكس من ذلك، سيجِد تعميماً تحذيرياً للأعضاء «الذين لم يُسدِّدوا الذمم المالية المترتِّبة عليهم»! (هل هذا التعميم يشمل الكتَّاب الشهداء أيضاً؟ وماذا عن الذمم الأخلاقية التي سيكون أصحاب التعميم مطالبين بتسديدها في الغد؟).

من يُطالع البيانات الثلاثة التي أصدرها «الاتحاد»، حتَّى الآن، بخصوص الثورة، سيصدمه كمُّ العار الموجود في تلك البيانات،

وسيسأل نفسه: هل الكاتبُ ضمير المجتمع أم ضمير الحاكم؟!

والمثير للسخرية، أكثر فأكثر، أنَّ المجلَّة الأشهر التي يُصدرها «اتحاد النعامات» هذا، تحمل اسم «الموقف الأدبي» (في عدد تشرين الأول **2012** وَصَفَ رئيسُ تحريرها الثورةَ السوريةَ بأنها «حالة من العمى»).

والسؤال: كيف يحقُّ لمن لا يملك موقفاً إنسانياً، أن يتحدَّث عن موقفٍ أدبيٍّ؟!

حاشا الأدبَ، وحاشا الأدباءَ.

افتتاحيَّة مجلَّة «الغاوون»، عدد 1 **كانون الأول** 2012

بيانٌ يردُّ على صحيفةٍ ومثقَّفيها(*)

فوجئتُ، كغيري من السوريين، بمقالٍ رخيصٍ منشورٍ في جريدة «الأخبار» اللبنانية، للكاتب جان عزيز، يُشبِّه فيه انتفاضة الأحرار في درعا بعملية الزائدة الدودية التي أجراها حافظ الأسد في الثمانينيات («تظاهرة درعا 2011 وزائدة الأسد 1983»، الأخبار، 19 آذار 2011)!

وإذ لا يخفى على أحدٍ ما ينطوي عليه هذا التشبيه من تحقيرٍ لانتفاضة السوريين واسترخاص لدمائهم، أتعجَّب من قيام جريدة «الأخبار» التي جنَّدت نفسها، منذ أشهر، لمناصرة الثورات العربية في تونس ومصر والبحرين وليبيا واليمن، بمهاجمة الثورة السورية!

إنَّ العقلية الصيرفية التي كُتِبَ بها المقال، والتي قامت بـ«تقريش» الدم السوري في السوق اللبناني لإظهار أنه بخس الثمن، ستجعلنا نشكُّ بخلفية تجنيد هذه الصحيفة كلّ إمكاناتها لنصرة ثورة البحرين (التي ناصرناها وسنناصرها دائماً) في الوقت الذي تقف فيه ضدَّ ثورة سوريا!

وإذا كانت حجَّة صحيفة «الأخبار»، ومثقَّفيها، في مهاجمة الثورة السورية هي الخوف على «المقاومة»، فأطمئنهم إلى أن الشعب السوري أكثر وطنيةً من نظامه الفاسد.

إنني كمواطن سوري، محروم من رؤية وطنه منذ تسع سنوات في الوقت الذي ينعم فيه بعض صحافيي «الأخبار» ومثقَّفيها بأفضل التشريفات في دمشق، أُطالب هذه الصحيفة بتقديم الاعتذار من الشعب السوري الذي يناضل اليوم لنيل حقِّه في الحرّية... التي لا يمكن أن يُظهرها الأرشيف الطبّي لزائدة حافظ الأسد.

بيان وُزِّع بتاريخ 19 آذار 2011

(*) وُزِّع البيان على بعض وسائل الإعلام، وقام بنشره كلٌّ من موقع «إيلاف» وموقع «الجزيرة نت»، إضافة إلى مجلَّة «الغاوون»، بينما رفضت جريدة «الأخبار» نشره أو حتى الإشارة إليه.

افتتاحية:
الأرشيف المخجل(*)

«لقد حظيَ الأسدُ بحصَّة الأسدِ من التاريخ، وأثبتت الإحصائيات والاستبيانات أنه أكثر الزعماء شعبيةً في الوطن العربي، ومن أكثرهم عالمياً»!

الكلام أعلاه لم يكتبه عضوٌ في «مجلس الشعب» في سوريا، أو رئيس تحرير جريدة رسمية، أو أمين أحد الفروع البعثية... بل كتبه أحد إعلاميي الثورة السورية حالياً، الصحافي إياد شربجي، في مجلته «شبابلك» قبل بدء الثورة السورية بأيَّام قليلة، في مقال بعنوان «قوَّةُ أيِّ رئيسٍ... شعبُه»!

بالطَّبع ما كنَّا لنفكِّر بنقل مثل هذا الاقتباس التافه لولا ظهور حالة استفزازية شكَّلها، تحديداً، أولئك الصحافيون والإعلاميون و«المثقَّفون» الذين كانوا، وإلى ما قبل اللحظة الأخيرة، جنوداً في خدمة السلطة، وما إن التحقوا بالثورة حتى شكَّلوا – تماماً كسابق عهدهم – شبكةً إعلاميةً دعائيةً لتظهير أنفسهم بمظهر الأبطال:

صفحات خاصَّة على مواقع «السوشال ميديا» وظيفتها الوحيدة تمجيد شخصياتهم «الثورية»، «لوائح شرف» تكون أسماؤهم في مقدِّمتها طبعاً، تدبيج مقالات وشهادات عن مواجهات خرافية حدثت بينهم وبين رموز النظام قبل الثورة... إلخ.

ومثلما كانوا حلقةً مقفلةً في الإعلام الرسميّ الذي استخدموه كرافعة لأسمائهم ولنفي الأسماء الأخرى، ها هم اليوم يُشكِّلون الحلقة المقفلة ذاتها في الثورة، فيمتدحون بعضهم بعضاً، ويُروِّجون لبعضهم بعضاً، ليس لتبييض صفحاتهم فحسب - فهذا أمر يمكن التغاضي عنه - ولكن أيضاً لطمس صفحات من سبقوهم بسنوات طويلة إلى معارضة النظام الاستبدادي! والسبب طبعاً هو أنَّ نموذج هذا المثقَّف يُدينهم ويُحرجهم، لذلك لا بدَّ من إبعاده وتحقيره بأيِّ وسيلةٍ كانت.

تقريباً، هم ينظرون إلى الثورة كوليمةٍ، تماماً مثلما كانوا ينظرون إلى السلطة كوليمةٍ.

والحقّ أنهم ذكَّرونا بقصَّة طريفة وحقيقية كان محرِّر المجلَّة شاهداً عليها في صباه، حيث اجتمع بعضُ كبار البطون على مَنْسَفٍ عامرٍ باللحم، فأكل كلٌّ منهم اللحمَ الموضوع أمامه، لتبقى المعضلة لدى هؤلاء في كيفية الوصول إلى اللحم الموجود في المنتصف، فقد

منعهم الحياءُ وطول قطْر المنسف الكبير من مدِّ أجسامهم لتناول ذلك اللحم. فما كان من أحدهم إلَّا أن ابتكر حيلةً خاصةً لفعل ذلك. فقد مدَّ هذا الشخص جسده بشكل فاضح وتناول اللحم من منتصف المنسف، لكنه بدل أن يأكله، أعطاه للذي بجانبه حالفاً عليه أن يأكله! فما كان من هذا الأخير إلا أن ردَّ له «المعروف» بأحسن منه، فمدّ يده هو الآخر إلى منتصف المنسف وتناول قطعة لحم أخرى حالفاً على صاحبه أن يأكلها! وهكذا فعل الآخرون حتى أتوا على اللحم كلّه!

بالطبع أمثال هؤلاء نحبُّهم ونتحمَّلهم في الحياة وفي القرية لظرافتهم وخفَّة دمهم. وحتَّى في السياسة التي ديدنها التذاكي والشطارة يمكننا ممارسة بعض التغاضي وتحمُّل ذلك. لكنَّ الأمر مختلف في عالم الثقافة.

فإذا كنَّا، في سبيل إنجاح الثورة، على استعدادٍ للتصفيق لسياسيٍّ ينشقُّ عن النظام الاستبداديّ، على الرغم من علمنا بمراميه الشخصية، فإننا غير مستعدِّين لفعل ذلك مع المثقَّف، خصوصاً حين لا يتحلَّى ببعض التواضع والقليلِ القليلِ من النقد الذاتي. ناهيك عن أنَّ مصطلح «انشقاق المثقَّف» يُفهَم منه الانشقاق والخروج عن مدرسةٍ ما أو نظريةٍ ما أو تيَّارٍ ما، ومن المعيب أن

يكون انشقاقاً عن سلطةٍ ما!

إنَّ الأرشيف الذي بين يدينا لبعض هؤلاء مخجل. بل ومخجل للغاية. لكننا سنُشيح بوجهنا عنه الآن، تماماً كما ستُشيح سوريا الغد بوجهها عن كلِّ مثقَّفٍ صاحبِ ضميرٍ نؤومِ الضحى.

افتتاحيَّة مجلَّة «الغاوون»، عدد 10 **أيَّار** 2012

(*) العنوان الأصلي للمقال «مثقَّفو الـمَنْسَف».

افتتاحية:
انتهازية المثقَّف(*)

باتت الثورات العربية أشبه بمحكٍّ لاختبار صدقيَّة المثقَّف العربيِّ. ليس فقط بالنسبة إلى ذلك المثقَّف الذي كان ينادي بالحرِّية وما إن وصلت الثورة إلى بلده حتى وقف ضدَّها، بل أيضاً بالنسبة إلى المثقَّف الذي سرعان ما انسحب إلى الظلِّ وبلعَ حنجرته ولسانه، منتظراً رجحان الكفَّة ليتَّخذ موقفه مع الرابح، وكأنَّ المعركة بالنسبة إليه لعبة ربح وخسارة!

مثل هذا النموذج الانتهازيّ من المثقَّفين تجلَّى قبحُه أكثر فأكثر في الثورات طويلة الأمد - كما يحصل الآن في الثورة السورية - حيث أصبح صمته هو المعادل «الثقافي» لصوت الرصاص الغادر الذي يقتل أبناء شعبه، كما أصبح سواد الظلِّ الذي يقبع فيه امتداداً لسواد الظلِّ الذي يقبع فيه أيُّ قنَّاص.

وماذا يكون المثقَّف إن لم يكن موقفاً في المنعطفات المصيرية في تاريخ شعبه ومجتمعه؟ إن لم يكن لاءً في زمن الـ«نعم»، استنطاقاً

للغة الشاعر المصري الراحل أمل دنقل؟

إنَّ المثقَّف الذي يدَّعي الحيادية في زمن المعارك المصيرية لمجتمعه لا يخون ضميره فحسب، بل يخون دورَه وعلَّةَ وجوده أيضاً.

بعض المثقَّفين السوريين يحاولون الترويج بأنَّ صمتهم هو نوع من «الاحتجاج» على ما يجري من اقتتال! والحقّ أنه كان يمكن مناقشة ذلك لو أنَّ هذا البعض ناصرَ الثورة في مرحلتها السلميَّة يوم كان الورد يُقابَل بالرصاص، ولم يقف منها موقف المتواطئ مع الجزَّار. فمَن لم يعلُ صوته في المرحلة السلميَّة للثورة في سوريا، لا يمكن أن يُحسَبَ صمتُه احتجاجاً في مرحلة العسكرة. لأنَّ صمت اليوم يَصرفُ من رصيدٍ موجودٍ في صوت البارحة، ومَن لا يمتلك هذا الرصيد لا يمكنه أن يصرف منه.

وفي انتظار رجحان إحدى الكفَّتَيْن، ينتظر هؤلاء صامتين مترقِّبين، في زمنٍ لا نقول بأنه زمن الأسود أو الأبيض، بل نقول بأنه زمن إعادة تعريف المثقَّف.

افتتاحيَّة مجلَّة «الغاوون»، عدد 1 أيار 2013

(*) العنوان الأصلي للمقال: «مثقَّفو الانتظار».

افتتاحية:
دونيَّة المثقَّف العربي

رَفَعَتْ ثورات الربيع العربي الستارَ عن دونيَّةٍ حقيقيةٍ كان يشعر بها المثقَّف العربي تجاه نفسه ودوره وموقعه قبل الثورة. فقد تعامل هذا المثقَّف مع نفسه ودوره كما يتعامل أهلُ الحِرَف مع أنفسهم وأدوارهم. لقد بدت الثقافة مهنةً عاديةً كبقية المهن تأثيرُها محصورٌ بأفراد القطاع الذين يمتهنونها.

تنصَّل هذا المثقَّف من جميع مسؤولياته لأنه اعتبر نفسه أقلّ من أن يقود الجماهير أو يصنع وعيها، ولأنه اكتشف أيضاً، بعد اندلاع الثورات، بأنَّ مسألة بناء الوعي الثقافي لدى الجمهور هي مسألة تراكمية لا تُصنَع فجأةً حين يدهمُ المجتمعَ حدثٌ كبيرٌ كحدث الثورة.

لذلك اكتفى المثقَّفون العرب بلحاق «الجماهير»، ومن لم يستطع منهم اللحاق بها هجاها واعتبرها رعاعاً.

لقد ظنَّ المثقَّف العربي بأنَّ الأبراج العاجية هي المكان الأنسب

لإقامته، لكنه لم يحترم حتى شروط الإقامة في تلك الأبراج، حيث صنع لها سُلَّماً خلفياً للاتصال ببلاط السلطان. وهكذا صار البرج العاجي برجاً فارغاً حتى من قيمة الزهد الاجتماعي.

لم ينزل المثقَّف العربي إلى مستوى جمهوره للتغيير فيه وبناء وعيه، ولم يصل أيضاً إلى مستوى العيش في برج يزدري التفاصيل الأرضية بما فيها بلاط السلطة. لذلك جاء دوره مخيِّباً، بل ورخيصاً في أحيان كثيرة، حيث راوحَ بين ممالأة السلطان وممالأة الجماهير.

في المحصِّلة، نظرَ المثقف العربي إلى نفسه بدونيَّةٍ، ثمَّ تعجَّب من نظرِ الجمهور إليه بتلك الدونيَّة!

افتتاحيَّة مجلَّة «الغاوون»، عدد 1 **آب** 2013

مثقَّفو الدَّرْك الأسفل(*)

لم تكدْ نُذُر الضربة العسكرية الأميركية(**) لنظام بشار الأسد تلوح في الأفق، حتى بدأ بعض المثقَّفين الموالين للأسد - وعلى العكس من جمهورهم - يرقصون فرحاً في مقالاتهم ومدوَّناتهم!

لماذا؟ لأنهم اعتقدوا بأنَّ هذه الضربة هي فرصتهم الكبرى للتطهُّر والاغتسال من الدم السوري الذي ظلَّت أقلامهم تلغُ فيه منذ أكثر من سنتَيْن.

لقد وفَّرت لهم حكاية الضربة الأميركية استعمالَ جُمَلٍ من طراز: «ظهرت حقيقة المؤامرة»، «هذا ما كنا نحذِّر منه»، «وأخيراً ظهر الأصيل بدل الوكيل»...

لا حصر للمزايا الدعائية التي وفَّرها لهم حديثُ الضربة الأميركية. ففجأةً صار بإمكانهم نطق كلـمة «ممانعة» بالفم الملآن. فجأةً صار بوسعهم تبسيط الـمسألة إلى حرب بين أميركا وأعدائها، وهم بالطبع كـ«ممانعين» لا يمكنهم أن يكونوا في «الصفِّ الإمبرياليِّ» كما يردِّدون دائماً.

وبينما كان سياسيُّو محورهم يشعرون بالهزيمة الـمُحْدقة، كان هؤلاء الكتَّاب يشعرون بلذَّة النصر على أقرانهم من مثقَّفي الثورة السورية الذين أثبتت الضربة الأميركية المقبلة، بالدليل القاطع، أنهم «مثقَّفو الناتو»!

إن كتَّاباً لبنانيين وعرباً، مرتبطين بنظام الأسد وإيران، كانوا قبل اندلاع الثورة في سوريا من مُدَّعي التمرُّد وتحرير الشعوب، وبعد هبوب رياح الربيع العربي انخرطوا في تأييد الثورات ظنّاً منهم أن نظام الأسد في منأى عن هذه الثورات، وجدوا أنفسهم في مأزقٍ كبيرٍ عند اندلاع الثورة الشعبية في سوريا.

ومثلما كان نظام الأسد يستجدي الحصول على صورة واحدة لأيِّ مسلَّحٍ في مطلع الثورة، كان هؤلاء يستجدون الحصول على أي جملة تشي بالإقصاء في أيِّ مقالةٍ لكاتبٍ مؤيِّدٍ للثورة. صاروا يتابعون بعض الصفحات الشخصية لكتَّابٍ سوريين من الدرجة العاشرة لاقتناص جملةٍ من هنا أو جملةٍ من هناك فيها شُبْهة كلامٍ طائفيٍّ. ولم يمرّ الشهر الأول من عمر الثورة السورية حتَّى كانت ازدواجيتهم قد فُضِحَتْ تماماً.

لذلك لم يجدوا حلّاً إلّا في شتم جميع الثورات العربية التي سبق لهم أن امتدحوها، مع الادِّعاء بأنَّهم يُعيدون قراءة تلك الثورات

بعدما تبيَّنتْ لهم حقيقة «المؤامرة». ولم ينجُ أحدٌ منهم من الاستعمال المتكرِّر لكلمة «الخريف»، بدل «الربيع»، حتى أن بعضهم بزَّ شعراءَ المرحلة الرومنطيقية في كثرة استعماله لهذه المفردة.

وهكذا بعدما ملأوا الصحف والمواقع بمدائح لثورات تونس ومصر وليبيا (سمّوا سقوط حسني مبارك بـ«سقوط نظام كامب ديفيد»)، عادوا وملأوا الصحف والمواقع ذاتها هجاءً لتلك الثورات. وذلك كلُّه، فقط، كي لا يظهروا بمظهر المتناقض والمزدوج عندما يتفرَّغون لتسليط سمومهم على الثورة السورية (شَتْمُ الثورات العربية لدى هؤلاء استثنى ثورة البحرين! ربَّما لأسباب «حداثوية» لا نعرفها ويحتفظ بها مثقَّفو جريدة «الأخبار»!).

لقد وضعت الثورة السورية أمثال هؤلاء في مكانهم الطبيعي ونزعتْ عنهم القناع الذي كانوا يتمايزون به عن زملائهم الأكثر ابتذالاً. لذلك لم نعد نميِّز بين بوق و«بروفسور»، بين شبِّيح و«مثقَّف ما بعد الحداثة» (على صفحته الشخصية، خاطبَ أسعد أبو خليل الشعبَ السوريَّ بـ«بني أُميَّة»!).

لقد جاءت أخبار الضربة الأميركية كحلٍّ سحريٍّ لمأزق هؤلاء، فمسحوا الدماء السورية عن وجوههم وخلعوا ثيابهم المدمَّاة واغتسلوا ثمَّ مشَّطوا شعورهم ناظرين إلينا بابتسامةٍ عريضةٍ وهم

يقولون: الآن تستطيعون التقاط صورةٍ لنا يا مثقَّفي «الناتو»!

موقع «أورينت نت»، 19 أيلول سنة 2013

(*) العنوان الأصلي للمقال: «مثقَّفو الأسد ونُذُر الضربة الأميركية».

(**) بعد الهجوم الكيمياوي الذي شنَّه نظام الأسد على غوطة دمشق سنة 2013، قرَّرت إدارة الرئيس الأميركي باراك أوباما تنفيذ ضربة عسكرية للنظام، لكن تمَّ إلغاء هذه الضربة بعد التوصُّل إلى اتفاق أميركي - روسي بنزع السلاح الكيمياوي السوري. وقد كشف السفير الإسرائيلي السابق في واشنطن مايكل أورن في مذكراته، في ما بعد، بأن ذلك الاتفاق تمَّ باقتراحٍ وتشجيعٍ إسرائيليَّيْن.

الذاكرة المُحرَجة(*)

مناسبة رحيل الشاعرِ السوريِّ الشعبيِّ الشهير عمر الفرَّا، تضعنا -نحن الذين شكَّلتْ قصائد الفرَّا جزءاً جميلاً من ذاكرتنا الشعبية- في ما يشبه المأزق. فكُثُرٌ من الذين صنعوا ثقافتنا (الشعبية والنخبوية على السواء) يقفون اليوم في صفِّ الدكتاتور القاتل: من دريد لـحَّام الذي ما زال دوره في مسرحية «كاسك يا وطن» قادراً على إسالة دموعنا، إلى أدونيس الذي كان لكتاباته أثرٌ واضحٌ على الحركة الثقافية العربية امتدَّ لعقدَيْن من الزمن، إلى كُثُرٍ غيرهما... وربَّـما لو لم «يسعف» الموتُ بعضَ الشعراء والمثقَّفين والفنَّانين البارزين قبل بداية الثورة لكانت أسماؤهم الآن مُدرجةً في سطور هذه المقالة.

والحقّ أنَّ هؤلاء وضعونا أمام خيارَيْن لا ثالث لهما: فإمَّا أنْ نُبرِّرَ لهم سقطتهم الكبيرة تلك ونمنحهم أسباباً تخفيفيَّة كي نحتفظ بالأثر الطيِّب الذي صار جزءاً من ذاكرتنا، وإمَّا أن نُسقطهم، هم وأعمالهم، من ذاكرتنا معتبرين تلك الأعمال خدعةً ثقافيةً تأخَّر

افتضاحُ أمرها في مختبر الواقع.

إنَّ هذا الإحراج الذي وضعَنا فيه هؤلاء، ووضعوا أنفسهم فيه، يتلخَّص في أنَّهم دعونا في أعمالهم إلى قيمِ الحرِّية، وحين هبَّتْ رياحُ تلك القيم وقفوا ضدَّها.

لقد دعونا في العلن إلى شيءٍ هم يخافونه في سرِّهم.

والمشكلة أنَّهم راحوا يُبرِّرون تناقضَهم هذا بمحاولة تجريمنا نحنُ، عبر القول بأنَّنا معادون لجوهر الحرِّية الحقَّة، وحرِّيتنا غير الحرِّية التي ينشدونها... إلى آخر هذا الكلامِ الالتفافيِّ الـمُخيِّب.

إنَّ شاعراً ومثقَّفاً مثل أدونيس تنكَّر لأبَسط قواعد المنطق وراح يتبنَّى خطاباً مبتذلاً ضدَّ الثورة السورية لا يختلف في شيء عن خطاب وسائل إعلام النظام، إلا بشكل الصياغة وانتقاء المفردات.

الإحراج الذي وقع بيننا وبين ذاكرتنا لم يعد بالإمكان تجاهله.

على المستوى الشخصي، حاولتُ في مطلع الثورة إيجاد مَـخْرَجٍ ما لدريد لـحَّام الذي لم أستطعْ إسقاط أعماله من ذاكرتي، فقلتُ بأنَّه: ممثِّلٌ كبيرٌ وإنسانٌ صغيرٌ.

ولكنْ كيف يكون كبيراً في الفنِّ مَنْ هو صغيرٌ في الموقفِ الأخلاقيِّ؟!

هذا سؤالٌ يستحقُّ البحث لأنه سؤال الثقافة العربية اليوم في

خضمِّ التحوُّلات الكبرى، حيث ظَهَرَ الفصام المخيف الذي تعيشه ثقافتنا بين الكتابة والواقع.

لقد كَتَبَ عمر الفرَّا قصيدته الشعبية الأشهر عن الفتاة «حَـمْدة» التي دفعتْ حياتها ثمناً لحرِّيتها، بينما فَعَلَ، هوَ، العكس في حياته.

وهكذا مات الشاعر على الجهة النقيضة للجهةِ التي أماتَ عليها بطلةَ القصيدة.

موقع «كلّنا شركاء»، **22** حزيران **2015**

(*) العنوان الأصلي للمقال «مات الشاعر وعاشت حمدة».

الأبراج العاجية والأقبية الرطبة

من بين الأسئلة الأكثر تعقيداً التي أثارها الربيع العربي عموماً، والثورة السورية على وجه التحديد، سؤالٌ عن دور المثقَّف وموقفه... وحين نقول «موقفه» فكأنَّما نقول «موقعه».

واللافت أنَّه أمام هذا السؤال لـمْ يرتبك المثقَّفون «العاديون» بقدر ما ارتبك المثقَّفون «الكبار»!

العديد من هؤلاء الذين كانوا دعاةَ حرِّيةٍ وتمرُّد، تحوَّلوا فجأةً – مع وصول رياح الثورة – إلى منظِّرين مـخمليين متطلِّبين مشترطين، لنكتشف – بعد مضي القليل من الوقت – بأنَّ وراء تلك الـمخملية وذلك التطلُّب هواجسَ ضيِّقةً بدائيةً لا تليق بالمثقَّف «العاديّ» فكيف بالمثقَّف المشهور الذائع الصيت والمؤلَّفات!

ورويداً رويداً تحوَّل هذا النوع من المثقَّفين إلى ما يشبه الأبواقَ التي أجادت الأنظمةُ الاستبداديةُ النفخَ فيها لإطراب المؤدلجين من جمهورها.

لكنَّ الأمانة النقدية تقتضي القول بأنَّ ارتباكَ المثقَّفِ العربيِّ،

اليومَ، أمام هذا الـمنعطف الكبير ليس الأوَّل في تاريخه، بل هو مجرَّد حلقة في سلسلةٍ طويلةٍ ومستمرَّة أعمتْ أبصارَها لمعةُ الرخامِ على دَرَج السلطةِ في الطريق لمقابلة الوالي أو الملك أو الرئيس... وأحياناً الَغازي (كيف ننسى، مثلاً، حكاية ابن خلدون مع مدينة دمشق وانبطاحه أمام تيمورلنك؟).

قبل زلزال الثورة، كانت الفكرة أن هؤلاء المثقَّفين «الكبار» أصابهم «القرف» من مجتمعاتهم المتخلِّفة واختاروا العيش في أبراج تتيح لهم مراقبة تلك المجتمعات من دون أن «تتَّسخ» ثيابهم جرَّاء الاحتكاك بأبنائها.

لكنَّ رياح الثورة التي هبَّتْ... نزعتْ ملابسهم وكشفتْ حقيقتهم القبيحة. واكتشفنا، فجأةً، بأنَّ تلك الأبراج العاجية لم تكن في الحقيقة سوى أقبيةٍ رطبةٍ لا تختلف بشيءٍ عن الأقبية الرطبة لأجهزة القمع التي سايرها هؤلاء المثقفون «الكبار» وحابوها وتغاضوا عن جرائمها.

لقد خرجت الثورةُ من الجوامع لأن نظامكَ «العلماني» أيها المثقَّف «الكبير» لم يترك للسوريين حيِّزاً عامًّاً يجتمعون فيه سوى الجامع.

أمَّا اليوم، وأنت تنتشي بتحقُّق «نبوءتك» الدموية، فلمْ يعد لكَ

من مرآةٍ تتمرأى فيها سوى هذه البِرْكة من دماء الضحايا؛ الذين لـمْ يُتحْ لهم الفقرُ شراءَ مؤلَّفاتك العظيمة!

موقع «كلّنا شركاء»، 3 تـمّوز 2015

قُبلة أدونيس

لو بقيَ لدينا مجلَّات ثقافية عربية حقيقية، لكان يجب أن تخرج أغلفتُها مُصدَّرةً بصورةٍ وحيدةٍ هي صورة أدونيس وهو يُقبِّل سفير بشار الأسد في لبنان علي عبد الكريم علي، بحضور مستشارة الأسد بثينة شعبان.

بالطبع ما يجعل لهذه الصورة «قيمةً» ليس فقط مادَّة الفضيحة التي تحتويها، باعتبار أنَّ شاعراً شهيراً مرشَّحاً لـ«جائزة نوبل للآداب» يقوم بتقبيل أحد رموز الإجرام في سوريا، بل لأنها أوَّلاً تفضح حقيقة الخطاب المعادي للثورات العربية، والذي يحاول اليوم الادِّعاء بأنه خطابٌ نقديٌّ نجح في استشراف المستقبل.

***

قام الخطاب الثقافي المعادي للثورات العربية على ركيزتَيْن دعائيَّتَيْن سعى إلى إلباسهما هيئة الفكر والنقد والعقلانية.

الركيزة الأولى هي القول بأنَّ الثورات العربية ليست مدنيَّة بل دينيَّة.

الركيزة الثانية هي القول بأنَّ الشعوب العربية غير مؤهَّلة للديموقراطية.

كان أدونيس أبرز من حمل لواء هذا الخطاب. ونظراً للمكانة التي يتمتَّع بها، فقد تضاعف حجم الدور الذي أدَّاه كـ«مرشد أعلى» لهذه الزمرة من المثقَّفين الذين امتلأت كتاباتهم بمفردات الحرِّية، وما إن دقَّت الثورةُ بابَ مناطقهم حتى كشفوا عن أنفسهم كأفرادٍ في حاشية الاستبداد.

في مطالع الثورات العربية، «تورَّط» أدونيس بمديح ما حصل في تونس ومصر، ولكن ما إن اندلعت الثورة في بلده سوريا، الذي تحكمه عصبةٌ من العسكر المنتمين - ويا للمصادفة - إلى طائفته الدينية، حتى انقلب على عقبَيْه، وشتمَ ما كان قد امتدحه سابقاً!

وأثناء محاولته اليائسة لتبرير انقلابه هذا، وازدواجية معاييره في مديح ثورة وهجاء أُخرى، راح يختلق بعض الفروقات الوهميَّة (ذكر مرَّةً أنَّ الثورة في مصر أعطت دوراً للمرأة على عكس الثورة في سوريا! دون أن يشرح لنا معنى ذلك!).

الجملة المفتاحية لكلِّ الخطاب المعادي للثورة السورية صاغها أدونيس بنفسه من خلال إعلانه بأنه لا يُؤمن بـ«ثورة تخرج من المساجد». علماً بأنَّ الخروج من المساجد كان يومذاك أشبه بـ«الحيلة

اللوجستية» للكثير من المتظاهرين المدنيين، باعتبار أنَّ المسجد كان المكان الوحيد الذي يسمح فيه النظام بالتجمُّع. وقد ردَّتْ لافتةٌ رُفعت في مدينة دير الزور على أدونيس بالقول بما معناه إنَّ «نظامه» لم يبنِ للسوريين سينما أو مسرحاً أو دار أوبرا ليخرجوا منها.

التهافت في خطاب أدونيس المعادي للثورة السورية، لم يقتصر على هذه المفارقات المتقاربة زمنياً، بل هو أيضاً تهافت «تاريخي» على المستوى الشخصي إذا جاز القول. فلمن لا يعرف، كان أدونيس من أكثر المؤيِّدين لثورة الخميني في إيران سنة 1979، ومن أكثر المتحمِّسين لها، إلى درجة أنه نشر، سنتذاك، قصيدةً عصماء في مديحها، بل وفي مديح مساجد مدينة قُم التي خرجت منها! وقد حملت القصيدة، التي نُشرت في جريدة «السفير» اللبنانية، عنوان «تحية لثورة إيران». ويقول مطلعها: «أُفقٌ ثورةٌ والطغاةُ شتاتُ/ كيف أروي لإيران حبِّي». إلى أن يقول: «سأغنِّي لـ قُمّ لكي تتحوَّل في صبواتي/ نارَ عصفٍ، تطوفُ حول الخليجِ».

وفي المنبر ذاته، أي جريدة «السفير»، عاد أدونيس - بعد أكثر من ثلاثة عقودٍ من نشر قصيدته المذكورة - لينشر رسالةً مطوَّلةً إلى من خاطبه بـ«السيِّد الرئيس بشار الأسد»، والذي كان قد قتل وجرح، حتى تاريخ كتابة الرسالة، الآلافَ من السوريين!

في تلك الرسالة، التي تحمل صيغة المناشدة من أجل «الإصلاح»، لم يكتفِ أدونيس بإسباغ صفة الفداء على الأسد (باعتباره «يفتدي» أخطاء «حزب البعث»)، بل ذهب إلى القول بأنه «رئيس منتخب»: «بوصفكَ خصوصاً رئيساً منتخباً»!! (جريدة «السفير»، **14** حزيران **2011**).

***

اليوم، يتنقَّل أدونيس بين المنابر الإعلامية متباهياً بأنَّ «رؤيته» قد تحقَّقتْ، وبأنَّه عرف منذ البداية بأنَّ ما يحصل ليس من الثورة بشيءٍ، لأنَّ الحراك الشعبي لم يتقيَّد بجملة الاشتراطات التي وضعها، هوَ، لتعريف الثورة.

وفي غمرة حماسته لتحقُّق «نبوءته»، يقوم بزيارة خاصَّة إلى مكتب السفير علي عبد الكريم علي، الذي ساهم في اختطاف وتسليم مئات السوريين في لبنان إلى سجون التعذيب والموت، والذي «يصادف» أيضاً أنه من أبناء طائفته الدينية، ليأخذه بالأحضان ويطبع على خدِّه قبلةَ النصر.

موقع «زمان الوصل»، **5** تـمُّوز **2019**

نصيحة شوقي بغدادي

نَشَرَ رجل الأعمال السوري يحيى القضماني (نائب رئيس «الهيئة العليا للمفاوضات») على صفحته الشخصية إعلاناً يقول فيه بأنه اعتزل النشاط السياسي منذ سنتَيْن، وبأنه سيكون شاكراً لمن يستطيع إلغاء حكم «محكمة الإرهاب» ضدَّه ليعود إلى سوريا!!

وعلى الفور أسدى الشاعر السوري المعروف شوقي بغدادي نصيحةً إلى صديقه القضماني مفادها أنْ يرسل «طلباً رسمياً إلى رئيس الجمهورية»، متوقِّعاً أن يوافق عليه «الدكتور بشار الأسد»!!

والحقّ أنني لستُ متفاجئاً مما كتبه القضماني، بسبب معرفتي بأنه لم يكن قبل الثورة صاحب موقف سياسي. وحين اندلعت الثورة استطاع، ككثير من رجال الأعمال السوريين الذين انحازوا إلى الحراك الشعبي، الحصولَ على منصبٍ في مؤسَّسات المعارضة. ومع الانكسارات المتتالية يبدو بأنَّ الرجل قد ندمَ على ما قام به، فكتبَ هذه المناشدة الذليلة.

لكنني متفاجئ، فعلاً، مما كتبه الشاعر شوقي بغدادي، وخصوصاً

اعتباره السفَّاح بشار الأسد رئيساً وقدوةً وموضعَ ثقةٍ!

متفاجئٌ من أنَّ شاعراً صمتَ عن المذبحة في بلاده طوال السنوات الفائتة، وحين فتح فمه فإنما لمباركة الذلِّ، وإعطاء شهادة حسن سلوك لصانع المذبحة!

متفاجئٌ من أنَّ شاعراً، له رصيدٌ من الاحترام، وقد خالَهُ العديدون منَّا أقرب إلى موقف الشعب، يُجاهر بما يخجل السوري العادي من التفكير فيه، ولو بشكلٍ عابرٍ، بينه وبين نفسه!

لقد اعتدنا على إيلاء موقف الشاعر أهميةً كبرى، وأحياناً تفضيليَّة على مواقف سواه من المثقَّفين، لأنَّ لكلماته وقعاً سحرياً وعاطفياً على الناس. ولأنَّ في التاريخ الإنساني أمثلةً تراجيديةً لا تُحصى عن شعراء قدَّموا حياتهم في سبيل قول كلمتهم وإعلان موقفهم.

وعلى المستوى الشخصي تابعتُ، منذ الأيام الأُولى للحراك الشعبي في العالم العربي، مواقفَ الشعراء العرب، كلٌّ بحسب موقفه من الثورة في بلده، وتصدَّيتُ لفضح العديد منهم على صفحات مجلَّة «الغاوون» الأدبية (2008 – 2013) التي كنتُ أُشرف على تحريرها.

وحين أعلن الشاعر السوري نزيه أبو عفش موقفه الصادم

والمخزي من المظاهرات السِّلْمية في سوريا، طلبتُ من رسَّام الكاريكاتور في المجلَّة أن يرسم أبو عفش على هيئة عنصر مخابرات يؤدِّي التحية للجلَّاد.

بعضُ أعداد مجلَّة «الغاوون» تحوَّلتْ إلى نشراتٍ سجاليةٍ حول مواقف الأدباء، والشعراء خصوصاً، تجاه حراك شعوبهم، لأنَّ المجلَّة أصلاً تمَّ افتتاح عددها الأوَّل بجملةٍ شهيرةٍ قالها برتولد بريشت بعد انتصار النازية في ألمانيا: «لن يقولوا: كانت الأزمنة رديئة، بل سيقولون: لماذا صمتَ الشعراء؟».

إزاء ما كتبه الشاعر شوقي بغدادي، أقول لنفسي: ليت الشعراء يتابعون صمتهم!

موقع «زمان الوصل»، **28** آب **2019**

(ملحق 1)

في بلاط الأسد وصدّام

شعراء في بلاط الأسد

قلَّة من الشعراء المشاهير مدحوا حافظ الأسد، وكان أبرزهم على الإطلاق محمد مهدي الجواهري صاحب البيتَيْن اللذين لا يوجد سوريٌّ على وجه الأرض لا يحفظهما عن ظهر قلب بسبب التكرار اليومي لهما في التلفزيون السوري طوال عقدَين من الزمن، وهما:

سلاماً أيُّها الأسدُ سلمتَ وتسلمُ البلدُ
وتسلمُ أمَّةٌ فَخَرتْ بأنكَ فخرُ من تلدُ

لكنَّ قلَّةَ الشعراء المشاهير، تُقابلها كثرةٌ كاثرةٌ من الشعراء المغمورين الذين تفنَّنوا في تأليه الأسد الأب وعبادته، وليس بوسعنا تعدادهم جميعاً لأنهم بالمئات، ويُشبهون تماماً زملاءهم في العراق الذين مدحوا صدَّام حسين، وكانوا بالمئات أيضاً. وبعض هؤلاء كتبوا دواوينَ كاملةً عن حافظ الأسد كديوان «سقط جدار النوم» للراحل حمد كامل الصالح، الذي وَقَفَه على تأليه الرئيس السوري.

فهو الفارس الذي «لم يحلم بهِ في الملاحم الشعراءُ»! وهو الذي يأمر فيُطاع: «لا أحدٌ إلَّا وليَّكَ! تدعونا فنأتمرُ»! وهو الذي كل شيء وغيره لا شيء:

فساحةُ المجد لم يخطرْ بها أحدٌ
إلَّاكَ إلَّاكَ والباقـونَ لا أحدُ

ومَن منَّا، نحن السوريين، يستطيع أن ينسى الشاعر الراحل نجم الدين الصالح، العضو الأبديّ في مجلس الشعب، الذي كان لا يترك كلمةً تمرُّ في المجلس إلَّا ويقاطعها لإلقاء قصيدة عصماء في الأسد:

يـا حـافظاً للبقايـا من أصـالتنـا
لولا فعلتَ لكان العرب ما وُجِدوا

وإذا كان هذا الكلام قد قيل وحافظ الأسد حيٌّ يُرزق، فإنَّ ما قيل فيه وهو ميِّت لا يقلُّ ابتذالاً. فهو الميِّت الذي يُحيي بشهادة غدير شعبان ملحم: «يا حاضر الروح نـحياها فـتُحيينا».

أما مانع سعيد العتيبة فقد حوَّله إلى وليٍّ يُزار قبره:

أسد العُرْب عدتَ حيًّاً وهذا
لـيس قبراً بل إنَّ هـذا مـزارُ

وزادَ رفعت شميس على ذلك، فجزمَ بأنَّ الله سيمحو ذنوبه كلَّها: «وكلُّ ذنبٍ، بـإذنِ الله، مـغتفرُ».

وهذا عبد الرزاق صبح يقول عن يوم موته ما يصحُّ قوله عن يوم القيامة:

تخيَّلَ الناسُ أنَّ الدنيـا باتَ بها
من الـحوادث زلزالٌ وطوفانُ
كـأنَّما الموت لـمْ يجرِ على أحدٍ
يوماً، ولا سمعتْ بالموت آذانُ

أمَّا محمد ديب دكاب فقد سقط قلبه ما بين ركبتَيه لهول الحادثة، حتى أنَّه راح يُتأتئ في نطق الكلمات والأحرف: «سقط الفؤاد لهول ما... ما قد جرى».

وحاولتْ كوثر شاهين إسعافَ زميلها المتأتئ، فطالبت الأبجدية بمليار حرفٍ (وليس أقلّ!) لكي تستطيع إيفاء الأسد الراحل حقَّه:

مـاذا أقـول، وهل يُـرثى بـقـافيـةٍ
من لـيس يُنصفـه شـعرٌ ولا نـثرُ؟
يـا ليثَ يعرب ليت الأبـجد الهوَّزْ
مليار حرفٍ عسى يُجدي بها الشعرُ

ولأنَّ الشاعر اللبنانيّ المعروف جوزيف حرب لا يريد أن يكون رثاؤه كرثاء هؤلاء، قام بتكليف خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيُّوبي وهشام بن عبد الملك بالجلوس معاً والتعاون في صنع إكليل يضعونه فوق رأس الأسد:

أبطالُ أُمَّتكَ الماضون ما انطفؤوا
أهدوكَ إكليلَ شمسٍ عندما أفلوا
ذا خالدٌ ذا صلاح الدين ذا يزنٌ
وذا هشامٌ وتيكَ الأعصرُ الأُوَلُ

وفي حَوْمةِ الدَّجَل تلك، لم ينسَ هؤلاء التبشير بالأسد الابن، فهذا أحمد محمد يُقرِّر باسم الشعب:

بشَّـار بـايعنـاكَ بـيعـةَ حـافـظٍ
وجـميعنا أعطى القرارَ ويبصمُ
فامضِ بنا ما شئتَ حيث تقودنا
ولأنت أعدلُ مَن يسودُ ويحكمُ

وما قاله حديثاً أحدُ أعضاء مجلس الشعب عن أنَّ بشار الأسد «يجب أن يحكم العالم»، سبقه إلى قوله أسعد حبيب يوسف حيث جعله إماماً للحاكمين قبل أكثر من عشر سنوات:

لنا البشارُ حافظنا الـمفدَّى إمام الحاكمينَ وليث غابِ

ومكافأةً لمجلس الشعب على سرعة تعديله للدستور في خمس دقائق من أجل انتخاب الأسد الابن، خاطبه زكريا خلف بالقول:

يا مجلسَ الشعبِ الوفيّ بجُلَّقٍ
أنت القويُّ بـحكمة الربَّـانِ

وبرومانسية العاشقين وصف مانع سعيد العتيبة تلك اللحظة التي قال فيها المجلس «نعم» لتوريث الأسد الابن:

حين قالوا: نعم، تغيَّب حزني
وتـجلَّى أمـام عينـي انصهـارُ

وبعدما صار بشار رئيساً، استمرَّ هؤلاء في أهازيجهم ودبكتهم، فها هو خالد عواد السالم يقول:

بـشَّـار فـينـا سراجٌ في تـوقُّـدهِ
إرادة الـخير والـنعمى، وننتظـرُ
نـجل الضيـاغم في دنيا مرابعنـا
فيكَ التصدِّي ومنكَ الأصلُ ينحدرُ

لكنَّ الأغرب من ذلك كلِّه، أتى على لسان الشاعر الراحل

محسن محمد الجراح، حيث قام بالتغزُّل، حرفياً، بوجه بشار الأسد كما يتغزَّل شاعرٌ بوجه المحبوب:

عشقتُ وجهَكَ يا بشَّارُ فلسفةً

والعشقُ كالجمرِ يشكو حرقةَ اللهبِ

موقع «الجزيرة نت»، 9 تمُّوز 2011

وأُعيد نشره في مجلَّة «الغاوون»، عدد 10 كانون الأول 2011

افتتاحية:
عن البرقية التي رفعها محمود درويش وآخرون إلى صدام حسين

في سياق مهمَّتها المستمرَّة في فضح الفساد الثقافي العربي، تنشر مجلَّة «الغاوون» نصَّ البرقية التي رفعها محمود درويش وسليم بركات وشربل داغر وجابر عصفور وحسُّونة المصباحي وآخرون إلى الرئيس العراقي السابق صدَّام حسين أثناء مشاركتهم في مهرجان المربد السادس سنة 1985.

الغريب أنَّ الكتاب الذي أخذنا منه هذه البرقية المُخزية («الخاكية» للكاتب العراقي عباس خضر) كان قد صدر سنة 2005، وأنَّ أحداً ممن كتب عنه في الصحافة اللبنانية لم يتناول هذه البرقية التي نتحدَّث عنها، لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ!! بل تمَّ تجاهلها تماماً وكأنها لم تكن! وذلك - كما لا يخفى على أحد - لأنَّ لهم بين موقِّعيها أصدقاء يُدارون بعضهم و«يخافون» بعضهم الآخر.

في الشهر الفائت وصلنا الكتاب المذكور هديةً من أحد الأصدقاء

العراقيين، وقد هالتنا كمِّيةُ العار التي صنعتها النخبة الثقافية العربية بقابليتها الكبيرة لقبول أيِّ رشوة من أيِّ طاغية مهما كانت كمِّية الدم الذي يصبغ يدَيْه.

بالطبع، نحن لنا أيضاً أصدقاء بين هؤلاء، لكننا لن نتستَّر على أيٍّ منهم، ورائدنا في ما نقوم به هو أن على كلِّ مثقَّف أن يتحمَّل وزر أعماله. خصوصاً في هذه المرحلة التي صارت فيها صناعة البطولة إحدى الصناعات الخفيفة والسريعة. خذوا مثلاً بيار أبي صعب، مسؤول الثقافة في جريدة «الأخبار» اللبنانية (التي بات لها اليوم مهمَّة وحيدة هي التضليل على الدم السوري الذي يسيل منذ سبعة أشهر). فهو يُقدِّم نفسه اليوم بطلاً في ثقافة «المقاومة»، ويُزايد على الآخرين فيها، بعدما عمل طوال 15 عاماً كمسؤول في الصحافة السعودية والتي نشر فيها مدائح عن آل سعود يندى لها الجبين، في استخفافٍ فاضح بذاكرة قرَّائه!

في الآتي نص البرقية:

«لقد رأينا يا سيادة الرئيس كيف تقذفون بالحقِّ على الباطل بكلمة «لا» فإذا هو زاهق. وكيف تُشمِّرون عن سواعدكم بكلمة «نعم» لإضاءة موطن المستقبل العربي... وليس لنا نحن الأدباء والشعراء العرب المشاركين في مهرجان المربد السادس إلَّا أن نتوضَّأ

بماء النصر الذي قدْتم العراق إليه، فحملتم به عبئاً عنا وقدَّمتموه لنا هديةً، هي هدية التاريخ للأجيال القادمة ضوءاً وأمثولةً وفداء...».

التوقيع: محمود درويش، سليم بركات، شربل داغر، جابر عصفور، غالي شكري، محمد إبراهيم أبو سنة، سلمى الخضراء الجيوسي، إبراهيم نصرالله، حسونة المصباحي، محمد الغزي...

افتتاحيَّة مجلَّة «الغاوون»، عدد 10 **تشرين الأول** 2011

(ملحق 2)

شهادة شخصية

صورة المثقَّف

مع تصاعد حالة الهستيريا الدموية التي أَدخلَ بها نظامُ الأسد بقيةَ المجتمع السوريِّ، بتُّ لا أستطيع الهربَ من تسمية الأشياء بمسمَّياتها المَجرَّدة، وبالتالي الاعتراف بأنَّ الاستبداد في سوريا لم يكن استبداداً سياسياً عادياً، بل إنَّما هو استبدادٌ طائفيٌّ يلبس اللبوسَ السياسيَّ.

وبالطبع قرأتُ ردوداً كثيرةً في هذا الصدد، بعضها صادقٌ وبعضها شتَّامٌ، لكنَّ ما لفتني حقَّاً هو وجود أكثر من ردٍّ يُحذِّرني من أنَّني قد شوَّهت صورتي كمثقَّفٍ بسبب هذا الكلام.

***

حين أجرتْ معي مراسلة جريدة «نيويورك صن» الأميركية، سنة 2005 في بيروت، مقابلةً صحافيةً حول نشاطي السياسي، سألتني السؤال الآتي: لماذا قرَّرتَ معارضة النظام؟

وكان جوابي بسيطاً جداً: أنا لم أُقرِّر أنْ أكون معارضاً للنظام، بل إنَّ العمل السياسيّ لم يكن من ضمن طموحاتي، فأنا شاعر

أصلاً، ولكني لم أستطع أن أبقى متفرِّجاً.

لقد كنتُ أتمنَّى فعلاً أن أبقى في تلك الصورة التي قالت ردودُ بعض الزملاء بأنني شوَّهتُها بالكلام عن الطائفية في سوريا، ولكنْ مثل هذا الأمر كان قد فات أوانه منذ أن دُفعتُ دفعاً لأن لا أكون الشخص الذي أردتُ أن أكونه.

فإذاً، الصورة الأصليَّة تـمَّ تشويهها منذ البداية، طالما أنَّ صورة المثقَّف التي أردتُها (الشاعر والناقد الأدبي) باتت على هامش الصورة التي حصلتُ عليها (مُعارض وكاتب مقالة سياسية).

***

حتَّى ما قبل الثورة، لم يكن ذلك التشوُّهُ الخفيُّ قد ظهر للآخرين الذين استطاعوا العمل في مؤسَّسات النظام، أو الهجرة مع الرضا بزيارةٍ سنويةٍ إلى الوطن دون أيِّ مضايقاتٍ من قبل الأجهزة الأمنيَّة. هؤلاء اختاروا في كتاباتهم الأبراجَ التي تحميهم من اتِّخاذ أيِّ موقفٍ تجاه ما يحصل في بلادهم من قهرٍ وظلمٍ واستبدادٍ. كانت الكتابة الأدبية بالنسبة إليهم بمثابة الـمُنقذ من ورطة اتِّـخاذ موقفٍ صريحٍ، حيث رطانة البلاغة وبهلوانيات الألفاظ ومواربات الكناية والتورية.

كان أمثالي، بالنسبة إلى هؤلاء، غير موجودين إلَّا كأدباء، أما

الجانبُ النضاليُّ ضدَّ الاستبداد فكان يتمُّ تأويله بشكلٍ غير بعيدٍ عن تأويلات النظام، حيث «الجهات المشبوهة» التي تستعملنا ضدَّ أوطاننا وتدفع لنا الأموال.

كنَّا بالنسبة إليهم مـجرَّد أدباء (طبعاً في التداولِ الشفهيِّ، أمَّا في الكتابة فلا يجرؤ أحدٌ منهم على الكتابة عن أعمالنا الأدبية)، لأننا -على قلَّتنا- نُحرجهم في صورتهم، بل نَجرح تلك الصورة التي تدَّعي الترفُّع عن صغائر السياسة، في حين أنَّها كانت تهرب من اتِّـخاذ موقفٍ تجاه الاستبداد الذي ابتلع بلادنا.

***

إنَّ ما حرصتُ عليه منذ بداية حياتي السياسية كمعارضٍ (بدأتْ بشكلها الـمُعلَن سنة 2002 حيث هربتُ إلى لبنان وشرعتُ بالكتابة في بعض صحفه ضدَّ النظام) هو ألَّا أتلوَّث بالمال السياسي أو الولاءات السياسية أو مهادنة الاستبداد. هذا جزء أساسي من صورة المثقَّف كما فهمتُها.

إنَّ لصورة المثقَّف المنخرط في العمل السياسيِّ أكثر من زاويةٍ للنظر إليها، لكنَّ هناك زوايا حتميةً لا يمكن القفز فوقها، أو إخضاعها لمسألة وجهات النظر، وعلى رأسها مسألة السيرة النظيفة. لقد كنت من أكثر الذين سخروا وهاجموا «شاعراً» لبنانياً كتبَ

ديوانَ شعرٍ و«رواية» في رفيق الحريري، لأنَّ الموقفَ السياسيَّ من جريمة الاغتيال لا يجب استعماله كبابٍ للارتزاق. فذلك «الشاعر» حوَّل موقفه السياسيَّ من قضية اغتيال الحريري إلى «سـبُّوبةٍ» وبابٍ للرزق. وموقفي هاهنا ينبع، في الدرجة الأولى، من حرصي أيَّـما حرصٍ على صورة المثقَّف. وكذا كان موقفي من أيِّ قضيةٍ سياسيةٍ تستلزم اتِّـخاذ موقفٍ مبدئيٍّ يمكن بقليلٍ من الاستثمار تحويله إلى منفعةٍ شخصيةٍ.

هذا ما فهمتُه، وأفهمُه، عن صورة المثقَّف.

***

اليومَ، يهرب بعضٌ (كثيرٌ) من مثقَّفي سوريا نحو استعمال الأقنعة في كتاباتهم، في زمنٍ ميزته الأولى تمزيق الأقنعة. بينما يواظب بعضٌ آخر (كثيرٌ أيضاً) على استعمال لغةٍ إنشائيةٍ رومانسيةٍ لا تغادر السطح، ولا تنفع الواقعَ بشيءٍ، ولكنَّه يصرُّ على استعمالها لتكون صكَّ براءته أمام جمهوره، وفي الوقت ذاته لن تُكلِّفه أيَّ شيءٍ من نصاعة صورته المتوهَّمة والمتورِّمة والجبانة.

أمَّا القلَّة من المثقَّفين الذين قرَّروا مواجهة الواقع بمفرداته الحقيقية، فقد تحوَّلوا -ضمن بروباغندا منظَّمةٍ وخبيثةٍ- إلى «مثقَّفين طائفيين»!

لكنَّ الجميع، في قرارة نفسه، يعرف ما هي الحقيقة، وأين هي الحقيقة.

***

لقد حملَ آخرُ عددٍ أصدرتُه من مجلَّة «الغاوون» الشعرية عنوان «سوريا تحترق»، ومن ثمَّ أوقفتُ إصدار هذه المجلَّة التي كنتُ أعتبرها مشروع العمر. شعراء كثر من مختلف البلاد العربية صُدموا بقرار إيقاف مجلَّةٍ تصدَّرت المشهدَ الأدبيَّ العربيَّ لسنواتٍ عديدةٍ. لكنِّي، فعلياً، بتُّ عاجزاً عن تحرير أيِّ مادَّةٍ أدبيةٍ ليس لها مكان ضمن ما يجري اليومَ في بلادي. ولو كنتُ ممن يكترثون بالصورة المزيَّفة للمثقَّف لَـمَا أوقفتُ المجلَّة.

مثل هذه المسائل ليستْ قراراتٍ شخصيةً خاضعةً لحسابات الربح والخسارة بقدر ما هي جزءٌ لا يتجزَّأ من موقف الإنسان.

لقد رأيتُ بأنَّ انخراطي في العمل المباشر، كمثقَّفٍ، له تأثيرٌ أكبر من إصدار دورية أدبية، مهما خصَّصتْ هذه الدورية من مساحةٍ للقضية السورية. لذلك انخرطتُ في كلِّ عملٍ رأيتُ فيه فائدةً تُرجى للقضية الوحيدة التي أعيشها، اليومَ، بكلِّ جوارح الشاعر التوَّاق إلى وطنٍ حرٍّ.

***

يقولون بأنَّني شوَّهتُ صورتي كمثقَّف. لكنِّي لا أفهم معنى أن تكون صورةُ المثقَّف جميلةً وأنيقةً وهو يدَّعي الدفاعَ عن شعب باتَ مُشوَّهاً: جسدياً بالقتل، ونفسياً باليأس، واجتماعياً بالتفكُّك، وديموغرافياً بالتطهير.

لا أعرف معنى أن تكون صورتي بيضاء في وطنٍ غطَّاه الدخان، ونقيةً في وطنٍ غابَ عن الرؤية، وناصعةً في وطنٍ يسبح في الدم. ثمَّ إنَّني أسأل: أليست أنانيةً من المثقَّف أن يكون مهجوساً بنصاعة صورته على حساب قول الحقيقة؟

***

الأبراجُ العاجيةُ، التي يقيم فيها المثقَّفون، موجودةٌ فقط في البلاد الـمُستقرَّة والمتقدِّمة والتي لا حروب فيها ولا مجازر ولا سجون ولا دكتاتوريات. أمَّا في بلادنا المنهارة والتعيسة فليس لدينا سوى أقبيةٍ واطئةٍ إلى درجة أنَّكَ غير قادرٍ على أن ترفع رأسكَ فيها.

وحين تتعارض صورة الـمثقَّف مع صورة الحقيقة، فاعلمْ يا أيُّها الـمثقَّف بأنَّ صورتكَ، هاهنا، قد طابقتْ تماماً صورةَ العار.

موقع «كلّنا شركاء»، **13** تشرين الأول **2014**

المحتويات

ملحق 1: في بلاط الأسد وصدام

ملحق 2: شهادة شخصية

صدر للمؤلِّف

في الشعر:

- الرسَّام (1999)
- ملحق الشعراء السرِّي (2001)
- قصيدة فاطمة (2004)
- العروس (2007)
- تمثال امرأة تتجرَّع السمّ (2008)
- حصاة في كُليتي اليسرى (2013)
- السوريون شجر (2017)
- قبورٌ صغيرة (2021)
- أطفال تأخَّروا عن موعد النوم (2021)

في السرد:

- لحظة وفاة الدكتاتور (2011)

في النقد الأدبي:

- محاكمة الشِّعر (2021)

في الثقافة:

- فضائح الآخرين (2021)
- المثقَّف القديم (2021)
- عند تقاطُعِ الفنِّ والسياسة (2021)

في السياسة:

- حكُّ الصدأ (2017)
- مفاتيح (2021)
- مواكبات فكرية للثورة (2021)
- الجانب الصامت من المأساة (2021)

في الفلسفة:

- حقائق من نوع خاصّ (قيد النشر)

منشورات ماهر شرف الدين

هذا الكتاب

يضمُّ هذا الكتاب مجموعةَ مقالاتٍ وافتتاحياتٍ وبياناتٍ، نُشِرَ قسمٌ منها في مطلع «الربيع العربي»، وقد وجدتُ اليومَ فائدةً في أن أُوفِّرها للقارئ في صيغة كتاب، كنوعٍ من الشهادة المدوَّنة عن الحالة التي كان عليها جزءٌ لا يُستهان به من المثقَّفين العرب في تلك المرحلة الاستثنائية من عمر بلادنا، والتي سبق لي أن وصفتُها بأنها «زمن إعادة تعريف المثقَّف».

تتناول الموادّ المختارة، ومن زوايا مختلفة، ما واظبتُ على تسميته بـ«المثقَّف العربي القديم» الذي عاش حياته بلاطيَّاً مدَّاحاً للدكتاتور، وحين فاجأته الثورات العربية أصابه ارتباكٌ دَفَعَه إلى اتِّخاذ وضعياتٍ إشكاليةٍ استحقَّتْ مواكبتها ونقدها.

نماذج كثيرة لمثقَّفين لم يكونوا أوفياء للدور الذي يُفترَض بهم أن يلعبوه كقادةِ وعي، يتصدَّى هذا الكتابُ المجموعُ لنقدها، وفق رؤيةٍ سيرى إليها البعض بأنها واقعيةٌ ومُنصفةٌ وسيرى إليها البعض الآخر بأنها مفرطةٌ في عدم واقعيتها.



شاعر وكاتب سوري من مواليد 1977. كتبَ في السيرة والنقد الأدبي والفلسفة والتاريخ والسياسة.

ISBN: 978-0-9995375-2-7